من آثار العبودية

بأمر الثورة وحكم الدستور أصبحنا جميعًا سادة، فلا عبودية لصاحب الحكم، ولا تبعية لمالك الأرض، ولا طاعة لغير القانون.

واقتضت المساواة في السيادة أن تلغي الرتب والألقاب فتحقق بذلك المثل القائل: كل إنسان، في نفسه سلطان !.

ولكنك لا تستطيع بالأمر أن تمنع الكلب أن يبصبص لك بذينه، ولا القط أن يتمسح فيه بجنبه. وسر الوراثة الذي يعلم الفرخ الخارج من البيضة كيف يلقط الحب وينشر الجناح، هو الذي يفرض على سلائل المستعبدين أن يحنوا الرأس ويدهنوا اللسان.

لقد ألغيت الرتب والألقاب من سجلات الحكومة وقوانين الدولة، ولكن لفظي الباشا والبك وتوابعهما من صاحب المعالي وصاحب السعادة وصاحب العزة لا تزال لاصقة بالأفواه لصوق الريق، تتردد في الخطاب، وتتدخل في الحديث، وتُنشر بين قوسين في الصحف. وليس لذلك موجب إلا هوان النفس على النفس، واعتياد الذليل للذل.

إن الفقير أو الضعيف لا يزال ينظر إلى الغني أو القوي من خلال الهالة التي ضربها هو من حوله بفقره أو بضعفه. فهو بحكم العادة يخاطبه خطاب الأدنى للأعلى، ويرى من الصعب على نفسه أن يسمى صاحب الطين والعقار، ورب الدائرة والدوار، ومالك الحياة والموت عليه بالأجرة أو الإيجار: (علي حمدي) بعد أن ظل أكثر عمره يسميه " علي باشا حمدي ".

وابن آدم كما يشهد تاريخه الطويل وضيع بطبعه. يضع لنفسه من الحجر أو الشجر صنما يعبده، إذا لم يجد في جنسه من الملوك والطغاة من يستعبده.

وهو يرضى هذه الضعة فيه بلذة الخضوع لذوي المال أو الجاه وإن لم يأته من ناحيتهم نفع.

قال شاعرنا المتنبي:

وقفت يوما على فاكهاني ببغداد أشتري منه بطيخًا. فساومته عليه بكذا درهما فأبى أن يبيعني إياه إلا بضعف ما فصلت. ومر عليه وأنا واقف رجل من ذوي الهيئات فأعطاه في البطيخ نفسه أقل مما قدمت فقبل، وأمره أن يحمله إلى داره فأطاع. فلما قلت له: رفضت أن تبيعني البطيخ بالثمن الأكثر، وقبلت أن تبيعه ذلك الرجل بالثمن الأقل. وحملته إلى داره بنفسك وكنت إذا اشتريته أنا لا أكلفك هذا الحمل. فما معنى هذا؟.

فقال لي الفاكهاني: أتدري من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا فلان صاحب الضياع التي لا تحد، ومالك الأموال التي لا تعد ! !.

فسلمت لمنطق الطبع وطلبت المال منذ ذلك اليوم !.